جبرا إبراهيم جبرا: "المبدع لا ينتهي"

أ. مي مظفر– عمّان

قبل رحيله ببضعة أسابيع بث التلفزيون الأردني مقابلة مسجلة مع الأديب الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا (1919–1994) قال فيها: "إن المبدع لا ينتهي، بل كيف ينتهي؟"

كان من حظ العراق أن يلوذ به الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا، الأديب والرسام، إثر الشتات الفلسطيني، ويعيش في كنف البلد الذي وجد فيه وطنا أليفا ومعطاءً، على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي واجهته فيه، وتجاوزها بصبر وأناة مثل أي عراقي. بل أمضى حياته فيه، فدرّس الأدب وتزوج من عراقية أصيلة، واكتسب الجنسية. احتضانه للثقافة والمثقفين العراقيين جعله جزءا من رعاة ثقافتها الحديثة فنّا كان أم أدبا. أمضى حياته في بغداد، في داره الجميلة في حي المنصور منتجا مبدعا، تلك الدار التي كانت متحفا لرواد الفن الحديث ومن تبعهم من أجيال. عاش حياته محاطا بمكتبته العامرة بالكتب الفكرية والأدبية والفنية والموسيقية(1) يتبع نظام حياة يسعى فيه إلى استغلال كل لحظة من أوقاته المعطاء الثمينة، يقرأ ويكتب، ويستقبل الأصدقاء وطلاب المعرفة أيّا كانوا.

كيف عرفت جبرا:

في مطلع الستينيّات من القرن الماضي، ولدى انتهائي من دراستي الجامعية في كليّة الآداب، وتخصّصي بالأدب الإنجليزي، شرعت بتطوير مهاراتي الأدبية باللغة العربية شعرا ونثرا. إلى غاية ذلك الوقت، كانت الكتابة عندي طقسا سريّا لم يطلع عليه أحد سوى واحدة من صديقاتي المقربات التي كانت تدرس الأدب العربي في الكلية نفسها، وكانت هي الأخرى تطمح أن تكون شاعرة. كان لديّ من الدفاتر المسودة بنصوص كثيرة ما جعلني أحتار في ماهية ما أكتب. كنت أبحث عمّن يوجّهني إلى الطريق، ويخبرني إن كنت حقا أمتلك قدرة إبداعية ما، وهو سؤال ظلّ يؤرّقني لسنوات طويلة.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

كان جبرا إبراهيم جبرا آنذاك يعمل في شركة نفط العراق، ويرأس تحرير مجلة تصدر عن الشركة باسم: "العاملون في النفط"، أفرد فيها مساحةً للأدب والفنّ لنشر الأعمال الإبداعية الحديثة للعراقيين. وكانت زوجته السيدة لميعة العسكري صديقة والدتي، وهي التي مهّدت لي طريقا للقاء الأستاذ جبرا. كان ذلك في خريف سنة 1961. مشيتُ إليه متهيّبةً، وما زلت أذكر مدى خجلي وارتباكي، ناهيك عن خوفي من أن أسمع منه ما يثبّط عزيمتي. غير أن استقباله ولميعة لي، وترحابهما بمقدمي مع والدتي، خففا بعض الشيء من توتري، أما تواضع جبرا وتبسطه ولطفه الشديد، فقد جعلني أشعر بانفراج كبير.

جلسنا منفردين في ركن جانبي، في حين جلست والدتي ولميعة في الركن المقابل من الصالة الصغيرة. كانت للميعة حياتان؛ إحداهما محض اجتماعية نسائية بغدادية، وأخرى مع زوجها في أوساط النخبة المثقفة، وفي كليهما كانت نجمة. وعلى الرغم من التباين الكبير بين شخصيتيْ جبرا ولميعة، فقد كانا في غاية التفاهم والانسجام، فلكلٍّ منهما خصوصيّته التي يحترمها الآخر بنهج الحياة التي اختارها، يربطهما الحب والانسجام اللذيْن قلما يتوافر عليهما أي زوجين آخرين في المجتمع العراقي. كانت لميعة، مسلمة من أصول موصلية وكردية، تحدّت عائلتها ومجتمعها المحافظ لتتزوج من جبرا الفلسطيني المسيحي، بعد قصة حب وردت تفاصيلها في كتاب: "شارع الأميرات". ومَن يعرف بغداد آنذاك، بوسعه أن يدرك أيّة جرأة وقوة تحدٍّ تمتلكها تلك السمراء الرشيقة الجذابة، ذات الشعر القصير والعنق الممتدّ. ولعلّ الأغرب أنها كانت تدرّس اللغة الإنجليزية لطلاب ثانوية التجارة في بغداد، وعُرفت بسيطرتها وهيمنتها على شباب متمرد هوايته التحدي.

لم أكن أعرف عن جبرا الأديب آنذاك إلا النزر القليل، ولم أقرأ له شيئا. فهو لم يكن محاضرا في كلية الآداب في أثناء سنوات دراستي (1956–1960)، بل التحق بالكلية في السنوات التالية. كنت أعرف أنه مع تيار الحداثة في الشعر والفن، وأنه صديق السياب وبلند الحيدري والرواد من الفنانين والمعماريين. كانت ثقافتي ما زالت مدرسية إلى حدٍّ ما، أساسها برنامج دراسة الأدب الإنجليزي في الجامعة الذي كان يقف آنذاك عند المدرسة الرومانسية، أي يقف

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

على أعتاب الحداثة الأدبية، بالإضافة إلى قراءات مكرّسة للشعر العربي. كادت معلوماتي وخبرتي في مجال الحداثة أن تكون مبهمة.

وضعت أمام الأستاذ جبرا دفترا مليئا بنصوص أزعم أنها شعر قائم على وزن وقافية. كنت أكتب بدافع غامض للتعبير عن ذاتي، وللتنفيس عن غليان عاطفي مدمّر، بعبارات تنطلق فجأة من همهمات موسيقية تملأ رأسي، مصدرها الأول الغناء الذي وجدت نفسي مندفعة إليه منذ طفولتي، وحفظي لاحقا لقصائد شعراء عرب من أزمنة مختلفة تمتدّ من المعلقات حتى نزار قباني والسياب، مرورا بشعراء المهجر، مدخلي الطفولي إلى عالم القصيدة المعاصرة.

اطلع جبرا على النصوص، قرأها بتمعن ثم ابتسم بلطف وعلّق قائلا: "ما هذا النفس الرومانسي!" من غير أن يظهر على تعليقه الثناء أو الشجب. ثمّ تساءل بلهجة أستاذ موجه: "لماذا أنت مصرّة على الوزن! أنا لست ضليعا بالوزن، ولن أستطيع أن أفيد في هذا الجانب، ولكن يبدو لي أن الوزن لديك مرتبك، ألا ترين أنه قيد لا يخدم القصيدة؟" قلت له إنني أحب بالشعر العربي إيقاعه الجميل وموسيقاه المسترسلة القائمة كما أعتقد على هذه الأوزان. أعرف أن لديّ خللا، فأنا أكتب على سجيّتي مدفوعةً بقوة الموسيقى التي تملأ أذني، وأرغب أن أتعلم فنون الشعر العربي بأصوله". قال: "نصيحتي لك أولا أن تهتمي باللغة، فلا تسامح أبدا مع الإخلال بها. وليتك تتخلين عن قضية الوزن، لأن القصيدة الحديثة متجهة نحو التحرّر من قيودها الشكلية، وأنا وجدت لديك مقاطع جميلة تصلح للنشر بعد تعديلها". اختار ثلاث قصائد، وطلب مني أن أرسلها إلى مجلة الأديب، وشخصيا إلى رئيس تحريرها "ألبير أديب"، صديقه الشخصي.

انتابني شعور مختلط من الحيرة والقلق، والفرح والإحباط لدى خروجي من ذلك اللقاء مع الأستاذ جبرا. فعلى الرغم من سعادتي الكبيرة بقراءة اسمي وقصائدي في مجلة الأديب بعد شهر من إرسالها، بل سعادتي بأن أجد اسمي يظهر في مجلة أدبية محترفة في تلك المرحلة المبكرة من تجربتي، انتابني الإحساس نفسه المرتبك والمختلط الذي شعرت به بعد لقائي ذاك. وجدت في النصوص المنشورة الكثير مما كتبتُ أصلا، ولكنها لم تكن نصوصي. ومثلما توقفت عن

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

استشارة الأستاذ جبرا يقينا مني بأنني أبحث عن توجيه مختلف، توقفت أيضا عن مراسلة مجلة الأديب بعد ذلك. كان طموحي في كتابة الشعر مختلفا عن التوجه الذي وضعني أمامه الأستاذ آنذاك. كنت أريد أن أكتب قصائد حديثة تنطلق من روح القصيدة العربية مزاجا وموسيقى، لتمتزج مع ثقافتي الغربية؛ قصائد كالتي بشّرت بها نازك الملائكة وبلورها السياب، وما كنت أقرأه في مجلة الآداب. بدا الطريق صعبا وشاقا لشابة تبحث عن الجدية في وسط رجالي يتعامل مع المرأة، شاعرة كانت أو فنانة، بكثير من الريبة. فهذان الميدانان في العراق: الشعر والرسم، يحفلان بطاقات إبداعية لم يكن من السهل اقتحام أي منهما إلا بشقّ الأنفس، ناهيك عن التنافس.

جبرا في بغداد:

مع نهاية حقبة الأربعين، أي المرحلة التي وصل فيها جبرا إلى العراق، وتعرّف إلى شعرائه وفنانيه. كانت الحركة الفنيّة قد شقت طريقها ومضت في تطوير بحثها عن آفاق أرحب، ولتلفت الأنظار أينما ظهرت، بتنوع موضوعاتها وخصب خيالها وقوتها التعبيرية. لقد هيأ انتساب جبرا لدار المعلمين العالية فرصة ذهبية للدخول في صلب الحياة الثقافية الساعية إلى التجديد والابتكار. فقد وجد هذا الأديب الفنان المتنوع بثقافته وإنتاجه، بيئة خصبة للتفاعل معها، كما وجد المثقفون والفنانون والشعراء منجم ذهب في هذه الشخصية الغنية بالطاقات. كان أول مدخل لجبرا في الحياة الفنية تعرفه إلى الفنان الرائد "جواد سليم" الذي كان يشرف آنذاك على المرسم الحر في الكلية. يومها كانت الحركة الفنية تشهد ريادتها وثمرات ما أنتجته حقبة الأربعين من وعي بمفاهيم البحث عن الهوية الشخصية في الفنّ والانفتاح على التجارب الفنية الحديثة من غير الذوبان في التغريب. فمنذ مطلع الأربعينيات بدأ الوعي ينمو نحو إيجاد شخصية محلية في الإبداع الفني، ويتبلور من خلال الحوارات والتجارب الجماعية التي سعت إلى استلهام البيئة، طبيعة كانت أم مدينة أم بشرا. وحين اكتشف جواد سليم فنَّ "يحيى بن محمود الواسطي"، الفنان البغدادي (القرن الثالث عشر ميلادي) الذي حوّل مقامات الحريري إلى رسوم منمنمة مدهشة، تفتحت مداركه على منبع فنٍّ بصري غني من إرث العراق الفني،

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

ودفعته نحو البحث عن مدرسة عربية في التشكيل الفني. فضلا عن أنّ عمله مع عدد آخر من مجايليه من الفنانين على ترميم القطع الأثرية في متحف الآثار العراقي، جعله يلامس تاريخا يمتدّ لآلاف السنين، ويجد فيه فهما معاصرا للتعبير الفني، الأمر الذي حفّزه على استلهام رموز حضارات أرضه وموروثها في بحثه عن هويّته الشخصيّة.

كان جواد قد أنهى دراسته الفنية في إنجلترا وعاد ليكمل مشروعه الكبير في تطوير بحثه لإيجاد شخصية عربية في الفن، مستمدّا رموزه وتصوراته من الإرث الحضاري لبلاد وادي الرافدين على امتداد عصوره ليمزجها بثقافته الفنية الحديثة. وكان قد تولى التدريس مع الأستاذ الكبير "فائق حسن" في معهد الفنون الجميلة، وكلاهما كوّنا تباعا جماعتين في 1950 و1951 تتفقان في الهدف وتختلفان في المنهج، كلّ منهما يسعى إلى إعلاء دور الفن في الحياة. اختار جبرا الانضمام إلى دائرة جواد سليم وشاكر حسن آل سعيد، لما لمسه من توجه فكري لدى الجماعة، وليصبح واحدا من مؤسسي "جماعة بغداد للفن الحديث". ومع توافق الجماعتين على استلهام الأجواء العراقية، والسعي إلى تغيير طبيعة النظر إلى الفن، فقد ذهبت جماعة بغداد إلى تبني النزعة الاجتماعية بدلا من نهج الأسلوب الانطباعي الذي انطوى عليه توجه جماعة "الرواد"، ودفع المشاهد إلى إعمال عقله وخياله من خلال ما أعلنته الجماعة نظريا في بيانيْها الأول والثاني. وأثمر هذا الاقتراب تبني جبرا للحركة الثقافية العراقية عامة، وأسهم في توثيق الحركة الفنية، لاسيما نشر الرسالة الفنية والفكرية لجماعة بغداد وما تنطوي عليه من وعي جديد بحضارات العراق المتعاقبة، وهو ما أكّده في البيان الثاني للجماعة الذي كتبه جبرا شخصيا، وذكر فيه أن هذه الجماعة لها رؤية مختلفة كونها تسعى إلى: "تصوير حياة الناس بشكل جديد، يحدّد إدراكهم وملاحظتهم لهذا البلد الذي ازدهرت فيه حضارات كثيرة واندثرت ثم ازدهرت من جديد"(2)

في الوقت نفسه، كانت الحركة الشعرية في العراق قد أعلنت عن ريادتها في العالم العربي متمثلةً بنازك الملائكة وبدر شاكر السياب ومن جايلهما. كان السياب والملائكة، وكلاهما درس الأدب الإنجليزي في دار المعلمين العالية، وعدد من رواد الحداثة الشعرية قد قطعوا شوطا في

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

بناء قصيدة حديثة قائمة على الخروج على تقاليد القصيدة العربية المتوارثة، أسوةً بما أحدثه الشعراء الإنجليز من تغيير في بناء القصيدة. وكانت تنظيرات تي اس إليوت وجيرترود شتاين وإزرا باوند تحظى باهتمام الشعراء والنقاد المتمكنين من اللغة الإنجليزية، وهم قلة آنذاك. فوجدوا في جبرا المبدع والأكاديمي خير معين على استيعاب التجارب الحديثة في العالم. فباقترابه هذا، لاسيما صداقته الحميمة مع السياب وبلند الحيدري وفؤاد التكرلي وعبد الملك نوري، فضلا عن اقترابه الشديد من حلقة المعماريين، أصبح جبرا جزءا من الحياة الثقافية العراقية التي كانت تنهض بقوة في مجالات الفن والعمارة والشعر والقصة والمسرح.

لقد وجد جبرا في هذا الغليان الإبداعي، والطاقات العراقية المتفتحة والساعية إلى التجديد والتغيير، مناخا مثاليا للتفاعل معها وتبني نشاطاتها بكلِّ ما يملكه من إمكانيات، بقدر ما وجد فيه هؤلاء المبدعون قوة إبداعية داعمة ومحرضة. وحين انتسب إلى شركة نفط العراق، وأسس مجلة: "العاملون في النفط" 1961-1972، أفرد مساحةً للإنتاج الأدبي والفني، وكان النشر في المجلة يُكافأ بمبلغ يبدو صغيرا لكنه كبير في ذلك الوقت. لقد احتلّ جبرا مكانه داخل النخبة المثقفة من المجتمع العراقي، صديقا ومبدعا وراعيا، له حضور دائم على مدى سنوات حياته في العراق في المنتديات الفنية والأدبية التي تقام في بغداد، أو التي يشارك بها ممثلا عن العراق في أماكن مختلفة من العالم.

واكب جبرا باهتمام وشغف سير العملية الفنية التي قلّما وجدت آنذاك مَن يحسن التحدث عنها بمهنية ومعرفة، ووقف بثبات يشارك بتطورها المتسارع لاحقا. ويعزى له الفضل في إصدار أول دراسة (1972) تتناول تاريخ الحركة الفنية المعاصرة والحديثة بأسلوب علميّ وموضوعيّ إلى حدٍّ(3) جعلها مرجعا أساسيا لكلِّ من يتصدى لدراسة هذه الحركة الحيوية. وحين تأسّست رابطة نقاد الفن العراق نهاية 1982(4)، وضمّ مجلسها ممثلين عن الفنانين والمعماريين والآثاريين والنقاد، اختير الأستاذ جبرا رئيسا لها، وظلّ يمثل العراق في جميع الاجتماعات التي كانت تقام دوريا في مختلف أطراف العالم. وكان لي شرف اختياري عضوا في الرابطة منذ تأسيسها والعمل معه لبضع سنوات. وبعد، فحين تقرر إصدار مجلة فنية باللغة العربية باسم

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

"فنون عربية" عن دار واسط في لندن، اختير جبرا ليكون رئيس تحريرها، وهي أول مجلة عربية من نوعها.(5)

مع مواكبته الحثيثة للحركة الفنية، وجد الأستاذ جبرا في الجيل التالي لجواد سليم وفائق حسن، والذي عرف بجيل الستين، ما دفعه إلى الوقوف مساندا للاندفاع الأكبر والأهمّ نحو الحداثة الفنية شكلا ومضمونا. فقد أسهم هذا الجيل بدفع الحركة التشكيلية الحديثة إلى آفاق أبعد، سواء في البحث البصريّ وأساليبه ورؤاه، أو في التوسع الجغرافي عربيا وعالميا.

بل لشدة اعتزاز هذا الجيل بدور جبرا في الكتابات النقدية، وتأسيس تاريخ الحركة الفنية الحديثة، فقد نظّم الفنان ضياء العزاوي في 2011 معرضا فنيا في دبي ثم بيروت، لتقديم تحية للمبدع الكبير، دعا فيه اثني عشر فنانا وفنانة يمثلون ثلاثة أجيال متواصلة بدءا من جيل الستين الذي مثله كل من ضياء العزاوي ورافع الناصري وعلي طالب. أقيم المعرض تحت عنوان: "الفن في العراق اليوم"، وهو عنوان دراسة لجبرا إبراهيم جبرا عن الحركة الفنية في العراق.

جبرا والتنوع الثقافي:

حين يتحدث جبرا في أي موضوع، يجعلك تشعر أنك أمام أستاذ بارع قادر على إيصال فكرته بكل جلاء، لا من خلال حديثٍ فوقي متعالٍ، وإنما من خلال وضوح رؤية واحتواء عميق ينقله إلى مستمعيه بمحبة يسري خيطها بين المتكلم والمستمع. ولعل السر في ذلك أن ثقافة جبرا شاملة ومتداخلة، تجمع بين الأدب والفن التشكيلي والعمارة والموسيقى، ومعالجته لأيٍّ من هذه الميادين تنمّ، ولا شك، عن معرفة خبير ممارس ومتذوق في آن. في كتابه الموسوم: "تأملات في بنيان مرمري"، يشير جبرا في مقدمة الكتاب، إلى طبيعة هذا التداخل الثقافي وأهميته: "ولعل البنيان المرمري أقرب ما يكون رمزا لكلّ عمل إبداعي، حيث العمارة تغدو صورة أخرى للكلمة، والكلمة صورة أخرى لما تراه العين. وهكذا تتبادل الفنون الأثر والوقع في النفس، بكل ما في الفنون من تعقيد النص والشكل، وفي النهاية بكلّ ما

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

فيها من قدرة على ذلك الإيحاء المستمر الذي يدفع بنا إلى المزيد من التأمل فيه، وإقامة الصلة بينه وبين الحياة."(6)

وجدت في تجربة جبرا وتداخل فروع الإبداع لديه نموذجا رائعا شجعني على المضي في التشابك المعرفي الذي وجدت نفسي مغمورة فيه من خلال قراءاتي المتنوعة باللغتين العربية والإنجليزية، للتوسع في مصادري المعرفية من جانب، وتطوير وقدراتي التعبيرية من جانب آخر، فقد لاحظت من خلال متابعتي لحركات الشعر الحديث ومدارسه في أوربا، أنها تتوازى مع الحركات الفنية ومدارسها بقدر ما تتوازى وتتأثر بالموسيقى الكلاسيكية، وأن التأثير والتأثر كانا على امتداد العصور عامل تفاعل وإغناء. وجدت أنه من أجل أن أفهم تطور الحركات الشعرية الحديثة ومناهج النقد الأدبي الحديث، كان عليّ أن أطلع على المدارس الفنية الحديثة. هكذا بدأت صلتي بالفنون، لتتطور تدريجيا وتتخذ مسارا جادا في حياتي. بل هكذا اتضحت أمامي حقيقة أن صنوف الإبداع أدبا كان أم فنا، ليست حقولا منفصلة بقدر ما هي مسارات متوازية تتفاعل ويثري بعضها البعض الآخر.

مع مرور الوقت وجدت أن رغبتي في التعبير تتوسع، وأن القصيدة لدي لم تعد كافية وحدها على استيعاب غلياني الداخلي، فكرا وعاطفة. فما تثيره قراءاتي المكثفة من رؤى وتصورات، تحتاج إلى فضاء أرحب. هكذا اندفعت إلى القصة القصيرة، التي جاءت في بداية الأمر على شكل نصوص رمزية ذات نفس شعري مكثف. وأحزنني أن أرى قصصي تلقى ترحابا أكثر من شعري، حتى أنني بدأت أحزن على شعري وأغار من قصصي. لكن هذا ما حدث. وبدأتُ أُعرف بكوني كاتبة قصة. كان جبرا من المشجعين على هذا الفن الذي دفعه إلى القول مرات عديدة: "أنت كاتبة قصة قصيرة بحق".

كان من نتيجة هذه القراءات المتداخلة أيضا أن وجدت نفسي أقتحم مجال الفن التشكيلي، بدءا بما كانت تجسده أمامي تلك القراءات من مقارنات وتداخل، وتفتح لي أبوابا لم تكن مطروقة في أدبنا العربي آنذاك. فترجمت عددا من الكتب الحديثة في مجال الدراسات المقارنة بين الأدب والفن. وظل إنتاجي المتداخل بين الشعر والقصة والنقد الفني والترجمة محيرا

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

لكثيرين. غير أن تجربة جبرا وقلة من أمثاله المثقفين العراقيين الذين كنت محظوظة بالتعرف إليهم، جعلتني أمضي في طريقي بلا تردد.

كثيرا ما كان يُطرح على الساحة الثقافية العراقية تساؤل حول تنوع نشاط جبرا إبراهيم جبرا، وتوزعه ما بين النقد والرواية والترجمة والشعر والرسم، ليليه تساؤل آخر: ما الذي سيبقى من الإرث الأدبي لهذا الأديب. وعلى الرغم من تمسكه بهذا الإنتاج المتنوع، اختار جبرا في نهاية المطاف أن يكرس جل وقته وجهده لكتابة الرواية التي وجد فيها مستقبلا كبيرا بقدر ما وجد فيها ملاذه، لا لأنها معلم من معالم الأدب المعاصر والحديث، ولكن لأنها الوعاء الأمثل لاحتواء ذلك الثراء المعرفي الذي يمتلكه، بما في ذلك استيعابها للطاقة الشعرية.

جبرا ورافع:

تعززت علاقتي بالأستاذ جبرا أكثر بعد اقتراني بالفنان "رافع الناصري" الذي كان جبرا شديد الإعجاب بفنه وشخصه، ولم يخف علينا ابتهاجه، واستبشر به وبمستقبل حياتيْنا معا اجتماعيا ومهنيا. فأصبحنا نلتقي في المناسبات الخاصة والاجتماعية بالإضافة إلى العمل المهني المشترك.

في نهاية ثمانينيات القرن الماضي كنت قد حصلت على قبول استثنائي من الكلية الملكية للفنون في لندن The Royal College of Art لتقديم دراسة عن تاريخ الفن في العراق(7)، مع التركيز على الحركة التشكيلية الحديثة. وكان من بين ما طلب مني تقديم شهادة من أستاذ أكاديمي، فزوّدني حينذاك الأستاذ جبرا بشهادة رائعة كشفت أمامي لأول مرة مدى دعمه وتقديره لي.

من خلال لقاءاتنا في عمان حيث حلّ بنا المقام منذ 1991، سألني الأستاذ جبرا عن مصير الدراسة، فأخبرته بعدم قدرتي على الانتظام فيها لأسباب محض مادية، إثر أحداث الكويت 1990. كما أخبرته عن عزمي على المضي لتحقيق دراسة موضوعية تصلح أن تكون مقدمة لتاريخ الفن الحديث في العراق وربطه بجذوره التاريخية العميقة، من خلال ما كنت ألقاه من

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

توجيه منهجي من العلامة المؤرخ "عبد العزيز الدوري". كان لذكر اسم الدوري وقع كبير على الأستاذ، إذ تهلل وجهه وقال على التو: "أنا شديد الاحترام لهذا العالم. هل تعرفين أنه كان السبب في توجهي إلى العراق. فقد التقينا صدفة في الطائرة القادمة من لندن في 1948، وجرى بيننا التعارف. كنت قد أنهيت دراستي في كمبرج وحصلت على الماجستير. ثم جرّنا الحديث عن المأساة الفلسطينية، وحيرتنا في إيجاد ملاذ لنا، فاقترح عليّ المجيء إلى بغداد وحثّني على ذلك. أخبرني في حينها أن وزارة المعارف بصدد إنشاء كلية للآداب، وتأسيس قسم خاص بالأدب الإنجليزي".(8) هكذا توجه جبرا إلى العراق، وعيّن محاضرا في قسم اللغة الإنجليزية في دار المعلمين العالية التي كان الدوري عميدها آنذاك (أصبحت تعرف باسم كلية التربية لاحقا). وفي مطلع الستينيات أصبح محاضرا في كلية الآداب، جامعة بغداد.

في كانون الثاني (يناير) من 1994، كنت مدعوة لحضور ندوة عن الإبداع الشعري في مدينة سوسة في تونس ضمن وفد عراقي يضمّ الأستاذ جبرا وماجد السامرائي ومحسن الموسوي الذي كان يقيم ويعمل آنذاك في تونس. اتصلت به قبل يومين من السفر، فاستقبلني ببشاشته وترحابه المعتادين، ولكنه أخبرني أنه لن يكون بإمكانه الحضور لأنه لن يحتمل السفر إلى عمان عبر الطريق البري، منفذنا الوحيد إلى العالم آنذاك، وقطع ما لا يقلّ عن أربع عشرة ساعة. وأخبرني أنه أرسل كلمته التي سيقرأها عنه الأديب ماجد السامرائي. أصبت بإحباط شديد، فقد كانت هذه اللقاءات زادا لنا، نستعيد من خلالها متعة حياتنا الاجتماعية والثقافية الحميمة في بغداد. لم ألمس من صوت جبرا، ولا من تدفّق حديثه أي وهن، ولم أكن أدري أن ضحكاته في الهاتف، وانتظاره لقاءنا في بغداد، كان نهاية تواصلي الحيّ مع الأديب الكبير والصديق العزيز والمعلم المستنير. غاب عنّا صوته، ليبقى أبدا حاضرا في ذاكرتنا وإبداعه.

مي مظفر/ عمان آب (أغسطس) 2017

الهوامش:

1- لعل من مفارقات القدر أن هذا الجزء تحديدا من دار جبرا تضرر ضررا بالغا من جراء التفجير الذي تعرضت له الدار لمجاورتها للسفارة المصرية التي كانت الهدف.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880

2- شاكر حسن آل سعيد، فصول من الحركة التشكيلية في العراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1982، ج1، ص169.

3- أقول: "إلى حدّ" لأن الدراسة أهملت ذكر بعض رموز الحداثة من جيل الستين، مع ذكر مَن كان على الهامش، وقد أُخذ عليه ذلك في حينه.

4- تأسّست رابطة نقاد الفن لتكون هيئة عراقية لها ارتباط بالرابطة العالمية AICA التي كان مقرّها في باريس.

5- دار واسط للطباعة والنشر أسسها الفنان الراحل ناظم رمزي في لندن. صدر من المجلة سبعة أعداد 1981-1982، ثم توقفت لأسباب مادية، وكان لها صدى واسع في الأوساط الثقافية العربية.

6- جبرا إبراهيم جبرا، تأملات في بنيان مرمري، دار رياض الريس، لندن 1989، المقدمة ص 9.

7- القبول كان استثنائيا لأنني لا أحمل شهادة جامعية بالفن وإنما بالأدب، ولكن اللجنة اقتنعت بقدراتي ومعارفي بعد المقابلة الشفهية، والملخص الذي قدمته، فمنحوني حق القبول للدراسات العليا، وكان علي أن ألتحق بالجامعة في خريف 1990.

8- تأسّست كلية الآداب في بغداد 1949 وكانت مدمجة بكلية العلوم وتسمى كلية الآداب والعلوم، تابعة لوزارة المعارف آنذاك. وفي 1951 أضيف لكلية الآداب عددا من الأقسام الجديدة من بينها قسم الأدب الإنجليزي الذي بدأ دورته الأولى في ذلك العام وكان جل أساتذته من الإنجليز وأول عميد د. عبد العزيز الدوري، وفي 1956 أصبحت مستقلة عن كلية العلوم مع صدور قرار تأسيس جامعة بغداد.

University of Souk Ahras - Université Mohamed Chérif Messaadia de Souk-Ahras
http://www.univ-soukahras.dz/en/publication/article/880